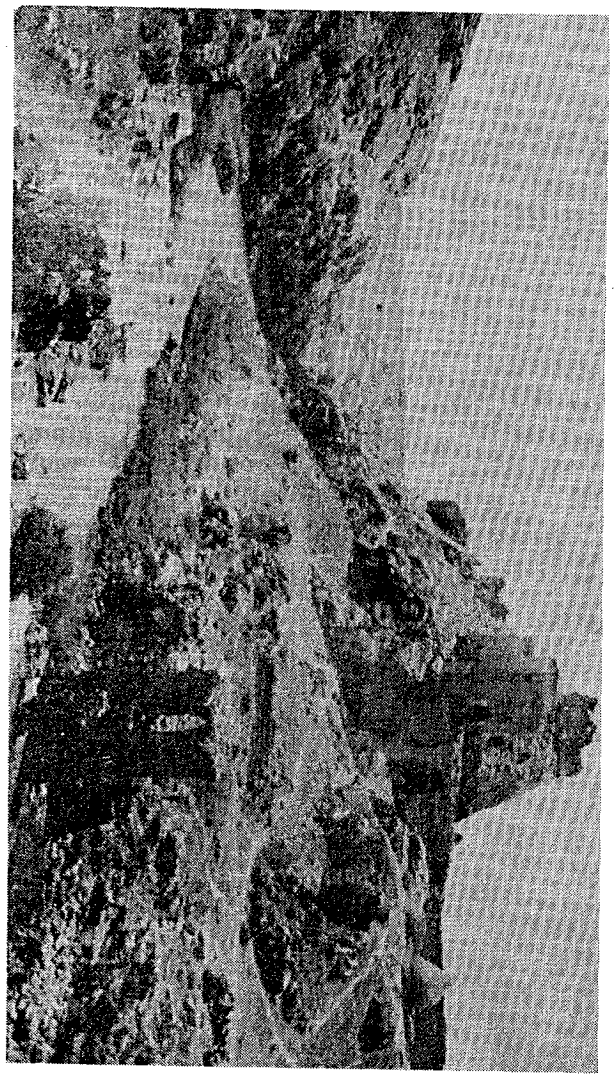

ENTRANCE TO THE CASTLE OF SHAYZAR

View taken from east of the Castle, showing the remains of the Bridge and the Orontes encircling the Castle on almost three sides.

قلعة شيزر كما هي اليوم. آثار الجسر القديم ظاهرة على شاطئ العاصي

كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ

وَهو مؤيّد الدولة أبو مظفّر أسامة بن مُرشد الكِناني الشَّيزري

عن النسخة الفريدة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا

حرَّره

فيليبُ حتي

د. ف

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

مطبعة جَامعة پرنستون

الولايات المتحدة

١٩٣٠

الطبعة ١٩٨١

الدار المتحـــدة للنشر
للطبـاعة والنشر والتوزيـع

٩٢ شـــارع البطريركية - بيروت - لبنان
ص.ب ٩٠٥٩/١١ - هاتف : ٢٣٩١٩٤ - ٢٥٩٥٢٠

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة المحرر ..... أ

الباب الأول
حروب وأسفار

١ - قتال الافرنج ١
٢ - أسامة في دمشق ١١٣٨-١١٤٤م ٤
٣ - أسامة في مصر ١١٤٤-١١٥٤م ٦
٤ - زيارة أسامة الثانية لدمشق ١١٥٤-١١٦٤م ٤٣
٥ - معارك مع الافرنج ومع المسلمين ٤٦
٦ - مكافحة الأسود وسائر الضواري ١٣٢
٧ - اختبارات حربية ١٤٥
٨ - طبائع الافرنج وأخلاقهم ١٦٩
٩ - اختبارات وملاحظات ١٨٢

الباب الثاني
نكت ونوادر

١ - أخبار الصالحين ٢٢١
٢ - الشفاء بطرق غريبة ٢٣٥

الباب الثالث

أخبار الصيد

١ – الصيد في سورية والجزيرة ومصر ٢٤٧

٢ – والدَ أسامة صيَّاداً ٢٥٥

آخر الكتاب ٢٩٠

الفهرس ٢٩٣

رسم قلعة شيزر ....صدر الكتاب

صحيفتان من المخطوطة .....١١ ، ب ب

خريطة شيزر ونواحيها ٢١٦

خريطة سورية ومصر والعراق .....آخر الكتاب

مقدّمة المحرّر

في العام الذي تلا فيه البابا أُوربانوس الثاني في كلارمونت خطابه المحسوب بحق وباعتبار نتائجه الصليبيَّة أفعل خطاب في التاريخ ، وُلد لبني مُنْقذ الأمراء في شَيزر على العاصي (وذلك في ٢٧ جمادى الآخر سنة ٤٨٨ المقابل ٤ تموز ١٠٩٥) صبيّ أطلق عليه والداهُ اسماً تحلّى به في صدر الاسلام أوّل قائد عربيّ عُهد اليه أمر فتح الشام[١]، وكان قد ورد في الرُّقم الحِميريَّة السابقة للاسلام[٢]. ذاك هو أُسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلّد ابن نصر بن مُنقذ مؤلف كتابنا هذا وبطل روايته.

عاش أُسامة شهماً فارساً، وزها مجاهداً مقاتلا، ولمع أديباً وشاعرا. تلهَّى صيَّادا ، وقضى الكثير من سنيه جوّابا. نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماه ، وصرف معظم شبابه في البلاط النُّوريّ بدمشق ، وفي قصر الخليفة الفاطميّ بالقاهرة ، وغالب سني كهولته في

---

(١) أُسامة بن زيد بن حارثة

(٢) في متحف اللوفر بپاريز حجر أتى به من صنعاء الرحَّالة بركها ردت عليه كتابة بالقلم المسند تضمَّنت اسم « أُسامة بن عامر ». راجع M. Lidzbarski, Ephemeris fiir Semitische Epigraphik (غيسين ١٩٠٢) ج ١ ص ٢٢١–٢٢٢ .

الدار الاتابكيَّة بالمَوصل وفي حصن كيفا على دجلة.

زار بيت المقدس في فلسطين، وحجَّ الى الحَرَمَين، وتنقّل بين معظم العواصم الاسلاميَّة من مدنيَّة ودينيَّة. عاشر نور الدين، وتصيَّد مع زنكي، وصاحب الخليفة الحافظ وخَلفه الظافر. تعرَّف شخصيًّا ببوهمند وتنكرد وفُلك من الافرنج الصَّليبيّين وخصَّه قُبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قمرياً صديقه صلاح الدين الأيوبيّ بعطفه. آخى الافرنج - ولا سيما الفرسان منهم - في حين السّلم وقاتلهم في حال الحرب، كما قاتل غيرهم من الاسماعيليَّة وسائر العرب - فضلاً عن الأُسد والوحوش. وأخيراً في اواخر ايام حياته دوّن لنا كل ما خبره بالذات، وعرفه من مصادره الأصلية، في مذكّرات شائقة رائعة قلّ نظيرها - من حيث الأمانة في النقل، والصدق في الرواية، والدقة في الملاحظة، والنكهة في التعبير - في مجمل آداب اللغة العربية.

فحياة أُسامة اذن تمثّل لنا الفروسيَّة الاسلامية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام في اواسط القرون الوسطى والتي بلغت حدَّها الكامل في صلاح الدين، وسيرته تتضمَّن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبيَّة الثلاث الأولى، ومذكّراته الموسومة «كتاب الاعتبار» مرآة تتجلّى فيها المدنيَّة الشاميَّة في اجلى مظاهرها - وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل بالمعارضة مع المدنيَّة الافرنجية التي قامت الى جانبها.

ولو ان أُسامة عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً عاملاً في المجمع

العلميّ العربيّ، ولكان بيته «صالوناً» للأدب بدمشق، ولراسل «الهلال» و«المقطّم» ولأكثر من العيش في الهواء الطليق يدرس طبائع الحيوان ويرقب نموّ النبات، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت، ولكان بلا تردّد في أثناء الحرب العظمى دَيْوَن فرقة من المتطوّعة تولّى قيادتها بنفسه.

على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال من حماه أكمة صخريَّة منتصبة على ضفّة العاصي الغربيَّة يكلّلها حصن لم يزل قائماً لليوم معروفاً باسم «سَيْجَر» تحريف «شَيْزَر». شَيْزَر هو المرسح الذي تمثّلت عليه معظم الحوادث المدوّنة في الكتاب والتي جرت وقائعها في أيام أُسامة الفتى. الهضبة لنتوئها سمَّاها مؤلفو العرب «عرف الديك». نهر العاصي يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث، فهي اذن شبه جزيرة بوضعيَّتها الجغرافيَّة. غير ان الانسان اكمل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبرّ ممَّا زاد في مناعة الحصن وفي تعذُّر الوصول اليه. وشيزر اثنان: قسم واقع ضمن القلعة على الرابية وهو «البلد»، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو «المدينة». وللقلعة أبواب ثلاثة اهمُّها يفتح نحو الجسر. وعلى الجسر حصن أُطلق عليه اسم «حصن الجسر».

اذا غزا غازٍ البلاد السوريَّة من الشمال فامامه طريقان: طريق بحريَّة تمرُّ في اللاذقية فالساحل الفينيقيّ - وهي الطريق التي اختارها الاسكندر وكثير من الغزاة الأشوريّين، وطريق داخليَّة تماشي العاصي الى حماه فحمص ثم تنعطف غرباً مع وادي النهر

الكبير حتى البحر شمالي طرابلس، أو انها تستمرّ من حمص في سهل البقاع وتتصل اخيراً بالساحل الغربي جنوباً عند أقدام سلسلة لبنان. الطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريّين والبابليّين من مثل رعمسيس ونبوخذنصّر وهي التي آثرها اكثر الصليبيّين. ولا بدّ لمن طرق هذه الطريق الثانية من الاجتياز بأفامية (قلعة المُضيق) وباختها الجنوبيَّة شيزر المسلطنة على وادي العاصي. هذا ما يجعل لموقع شيزر خطورة حربيَّة.

لشيزر اسم في رأس قائمة المُدن السوريَّة المتوغّلة في القدم. ذكرها طُثميس للمرّة الأولى بالهيروغليفيَّة نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.، في عرض وصف احدى حملاته من مصر، باسم «سِنْزار» أو «سِيْزار». وذكرها بعده خلفَه البعيد عمنحوتب الثاني[٣]. ووردت بصيغة «زِنْزار» في رُقم تلّ العمارنه المسماريَّة. وسمَّاها اليونان الاقدمون «سِدْزارا» والبيزنطيُّون «سِيْزِر». وفي اواخر القرن الرابع قبل المسيح أسكنها سلوقص الأول مهاجرين من لارِسَّا في ثساليا وغيَّر اسمها الى «لارِسَّا». على ان الاسم الساميّ الأصليّ ما لبث أن عاد فتغلَّب وظهر بالعربية في صيغة «شيزر». وعلى هذه الصورة ورد الاسم في بيت قديم لامرىء القيس:

تقطَّعَ أسْبَابُ اللُّبانةِ والهَوى عشيَّةَ رُحْنَا من حَماةَ وشَيزرا

وفي آخر لعبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات:

(٣) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt (شيكاغو ١٩٠٦) ج ٢ فقرة ٥٨٤ و٣١٤.

فواحَزَناً إذفارقوناوجَاوروا سوى قومِهم أعلى حماةَ وشَيزرا[٤]

أمَّا مؤرخو الافرنج الصليبيُّون فاطلقوا عليها اسم «Caesarea» – قيصرية. وأحياناً قيصرية العاصي للتمييز.

فتَح العرب شيزر عام ١٧ (٦٣٨) فيما فتحوا من المدن الشامية، وذلك عقب الاستيلاء على حمص وحماه بقيادة ابي عُبيدة ابن الجرّاح، فتلقّاه اهل شيزر «يكفّرون ومعهم المقلّسون، ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة»[٥]. انما البلدة لأهميَّة موقعها الجغرافي، وباعتبار كونها مفتاح سوريَّة الداخلية، بقيت مطمح أبصار البيزنطيين الذين استخلصوها مراراً من ايدي العرب وخسروها، الى ان اخضعها الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٩ وبقيت بيد الروم حتى عام ١٠٨١. وهو العام الذي استرجعها فيه عزّ الدولة سديد المُلك ابو الحسن عليّ، جدّ أُسامة، من أيدي الامبراطور ألكسيس كومنينوس.

وكان صالح المِرْداسيّ، صاحب حلب، قد منح الأُمراء المُنقذين من بني كِنانة عام ١٠٢٥ إقطاعاً في جوار شيزر. فتمكّن أحد هؤلاء الأُمراء، مقلّد، من الاستيلاء على كفرطاب سنة ١٠٤١. وجاء بعده خَلفه أبو المتّوج مقلّد بن نصر الذي بسط سلطته الى العاصي وبنى حصن الجسر عند قدمَي شيزر ليقطع عنها المدد. ولكنَّ البلدة بقيت بيد البيزنطيّين الى أيام سديد المُلك. فسديد المُلك اذن هو

(٤) ياقوت «معجم البلدان» (ليبزغ ١٨٦٨) ٣:٣٥٣.

(٥) البلاذري «فتوح البلدان» (ليدن ١٨٦٦) ص ١٣١.